

# فلسفة السؤال في القرآن الكريم

ياسين الورزادي  
باحث مغربي



قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة  
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved  
Mominoun Without Borders

يعتمد البحث العلمي على طرح الأسئلة والإشكالات، ثم الانطلاق منها للبحث عن إجابات وحلول حقيقية وواقعية؛ فالمعرفة لا تتأسس إلا على السؤال، وإن أي بحث علمي يحترم قواعد البحث عن الحقيقة، لا بد وأن يبدأ من إشكالية أو مشكلة معينة، تمنحه شرعية لموضوع البحث، كما تعطي لاستنتاجاته وخلصاته مصداقية معينة. وحديثنا عن فلسفة السؤال في القرآن الكريم، يستمد أهميته من وعينا بدور السؤال في توجيهه وتطوير البحث العلمي، باعتباره يشكل حجر الزاوية في التأسيس المعرفي لمعالجة القضايا والمشكلات معالجة سليمة وناجعة. فالإشكالية الخاصة بكل بحث هي التي تميز هذا البحث عن غيره من البحوث التي تتناول نفس الإشكالية؛ فهي التي تصف وجهة النظر التي تتم وفقها الطريقة والمنهجية المعتمدة في دراسة الموضوع. لأجل ذلك تعتبر محطة أساسية في البحث العلمي.

وسوف نعود إلى إبراز فلسفة السؤال في القرآن الكريم، وتحديد معالمها، من خلال تناولنا للعناصر التالية:

أولاً: في طبيعة السؤال المعرفي في القرآن الكريم.

ثانياً: في فلسفة السؤال والرؤية الكونية القرآنية.

ثالثاً: في فلسفة السؤال في القرآن الكريم وتطوير البحث العلمي.

## أولاً: في طبيعة السؤال المعرفي في القرآن الكريم

إن الفكرة المركزية، التي نحاول بسطها وتناولها في هذه الدراسة، تتبع من مسلمة أساسية مفادها أن العجز الفكري والمعرفي الذي يعاني منه الفكر الإسلامي اليوم، يعود في جزء كبير منه إلى غياب روح التساؤل والتأمل والنقد، وإلى طبيعة الأسئلة الزائفة والوهمية التي يترتب عليها بالضرورة إجابات وحلول خاطئة، أو أنها تبقى في غالب الأحيان أسئلة معلقة.

لقد استنفد الفكر الإسلامي، مثلاً، قسطاً كبيراً من الزمن والجهد في الصراع حول تلك الثنائيات والتقابلات، من قبيل العقل والنقل والدين والعلم والأصالة والمعاصرة، وغيرها من الثنائيات التي تطرح بالإضافة إلى سياقها التاريخي ضمن نسق تقابلي، كما تحدث عن ذلك المفكر الإسلامي الدكتور سعيد شبار.<sup>(1)</sup> مما ينتج عنه نزعات واستقطابات فكرية ومذهبية، تنتصر لجانب معين على حساب جانب آخر.

(1) سعيد شبار: في كتابه النص في قراءات الفكر العربي المعاصر: سلسلة الحوار منشورات الفرقان الطبعة الأولى 1999 ص 34: من مظاهر التحيز في العلوم الإسلامية وتأثيرها على ثقافة الأمة وعطائها الكوني: [دراسة ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، سلسلة ندوات علمية (3) بعنوان العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟ بأكادير يومي 30-31 مارس 2010 الطبعة الأولى.

وهكذا يتحول العقل من إنتاج المعرفة الحقيقية إلى إعادة إنتاج صور معرفية تاريخية مشوهة، وغير قادرة على التعاطي الإيجابي مع التحديات المعاصرة والإشكالات المتراكمة، التي ورثتها الأمة الإسلامية منذ عصور الانحطاط.

ولعل هذا ما يفسر لنا، لماذا لا تزال الأسئلة التي طرحت منذ عصر النهضة الإسلامية قائمة إلى حدود الساعة، ولم يتم إيجاد أجوبة شافية لها، بل إنها لا تضيف أي جديد أو إضافة لحقل المعرفة الإنسانية؛ فالسؤال الخاطيء ينتج بالضرورة فروضا وأجوبة خاطئة، لكن السؤال المطروح هنا هو ما الذي يضبط السؤال في القرآن الكريم؟ وما الذي يحدد طبيعته المعرفية؟ وما الذي يميز الرؤية المعرفية القرآنية لطبيعة السؤال؟

إن حقيقة السؤال تكشف عن حقيقة التطلع المعرفي المركوز في فطرة الإنسان؛ فالأسئلة الكبرى المتعلقة بالوجود والمصير وطبيعة الكون تولد مع الإنسان، والجواب عنها هو ما يؤطر رؤيته وفلسفته في الحياة، وهذا ما يسمى بالرؤية الكونية القرآنية، التي تضبط وترشد عقل المسلم في جميع مناحي الحياة، النظرية منها والعملية.

فالسؤال في القرآن الكريم يعتبر محفزا للعقل، وتأسس طبيعته؛ أي السؤال، على الصيرورة والنقد وإعادة البناء؛ فالمعرفة المطلقة تتجلى في الواقع النسبي عبر التراكم المعرفي، وعبر عملية البحث العلمي الدائم. أما المعرفة في القرآن، فممكنة وبقينية، وهذا ثابت في كثير من الآيات التي تدعونا للتأمل والتفكير والتدبر والتساؤل.

ونشير فيما يلي إلى بعض تلك الآيات الدالة على طلب العلم والمعرفة:

قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)<sup>(2)</sup> وقوله تعالى: (أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)<sup>(3)</sup>. وقوله تعالى: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)<sup>(4)</sup> وقوله: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)<sup>(5)</sup>

(2) سورة: ص الآية 29

(3) سورة: محمد الآية 24

(4) سورة: يونس الآية 101

(5) سورة: الروم الآية 8

قوله تعالى: ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ )<sup>(6)</sup>

قوله تعالى: ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )<sup>(7)</sup>

قوله تعالى: ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ )<sup>(8)</sup>

وفي أسلوب استفهامي يدعو للوقوف مع الآيات والتأمل في مقاصدها:

قوله تعالى: ( أَفَلَا تَعْقِلُونَ )<sup>(9)</sup> قوله تعالى: ( أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ )<sup>(10)</sup> قوله تعالى: ( أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ )<sup>(11)</sup>

والمعرفة هنا، لا تتأسس على الظن أو الشك أو الوهم أو الأحكام المسبقة، يقول تعالى: ( وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ )<sup>(12)</sup> وقوله تعالى: ( إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا )<sup>(13)</sup> والمعرفة الحقيقية هي التي تقوم على أساس التعقل واليقين، وقائمة على أساس البرهان والحجة: ( قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )<sup>(14)</sup>

إن طبيعة السؤال في القرآن الكريم نستنتجها من خلال التوجيه القرآني للسؤال المعرفي، وما يتميز به من خصائص ومميزات، وهي:

أ- الواقعية: بمعنى أن تكون له قابلية البحث ( وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ )<sup>(15)</sup>

ب- الملاءمة: وهي أن يكون ملائماً لطبيعة الموضوع المبحوث، فلا يجوز البحث، مثلاً، عن علم الزراعة أو الفيزياء، أو غيرها من العلوم التي ترك الله مجالها للعقل الإنساني كعلامة على التكريم في القرآن، أو في مجال لا يلائم طبيعة الموضوع، وأن المتدبر في القرآن الكريم يجد أن كتاب الله عز وجل أشار إلى علوم، يمكن أن نطلق عليها "علوم أشار إليها الكتاب". ومن بين هذه العلوم التي أشار إليها وحث على تعلمها، علم التاريخ وسنن التاريخ، يقول الله تعالى: ( قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(6) سورة: الرعد الآية 3

(7) سورة: الرعد الآية 4

(8) سورة: الحجر الآية 75

(9) سورة: البقرة الآية 44

(10) سورة: الأنعام الآية 50

(11) سورة: الأنعام الآية 80

(12) سورة: الإسراء الآية 36

(13) سورة: يونس الآية 36

(14) سورة: البقرة الآية 111

(15) سورة: الأعراف الآية 143

المُكذِّبِينَ<sup>(16)</sup>. هذا العلم الذي كان يتم تحصيله واكتشاف قوانينه عبر السير في الأرض، والنظر في أحوال الأمم السابقة، وقس على ذلك سائر العلوم الإنسانية والطبيعية.

**ج- الوضوح:** بمعنى أن يكون دقيقاً وموجزاً، وقد لاحظنا ذلك في معرض حديثنا عن الآيات الداعية للتأمل والتساؤل، وهي قوله تعالى: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ)<sup>(17)</sup> وقوله تعالى: (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)<sup>(18)</sup>

### - السؤال وتكريم الإنسان:

يعتبر السؤال في غالب الأحيان علامة العقل، كما يعتبر علامة على حرية الاختيار المعرفي. وكل هذا يرتبط بحقيقة الإنسان وبدوره في الحياة؛ فقد كرم الله بني آدم وسخر لهم ما في السماوات والأرض. (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).<sup>(19)</sup> ولعل الآيات في هذا الصدد كثيرة ومتضافرة، تؤكد على تكريم الإنسان واختياره للقيام بمهام الاستخلاف عن الله في الأرض.

### - وظيفة السؤال وأهميته في القرآن الكريم:

سبق أن أشرنا إلى الآيات التي يحث فيها القرآن العقل الإنساني على التساؤل، والتفكير والتدبر، وإعمال العقل في فهم القرآن، وفي معرفة حقائق الوجود والطبيعة، مما يدل دلالة قاطعة على أهميته في حياة الإنسان. ومن ثم، فإن الوظيفة الأساسية التي يهدف إليها القرآن، من خلال الدعوة إلى تأمل القرآن الكريم ومعادله الموضوعي المتمثل في الكون، هي تحريض وتحفيز وإثارة العقل، من أجل تحصيل معرفة علمية وحقيقية تنبني على العقل، ولا تنتقيد بالتقاليد والأحكام المسبقة، وبما ورثه الناس عن أجدادهم دون تمحيص أو تدقيق.

يقول سبحانه وتعالى: ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)<sup>(20)</sup>، وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)<sup>(21)</sup>، وقوله تعالى: ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ).<sup>(22)</sup>

(16) سورة: آل عمران 137

(17) سورة: البقرة الآية 44

(18) سورة: الأنعام الآية 50

(19) سورة: النحل الآية 78

(20) سورة: البقرة الآية 170

(21) سورة: المائدة الآية 104

(22) سورة: الزخرف الآية 23

## - السؤال في القرآن الكريم وآلية النقد:

يعتبر السؤال محفزاً للعقل وعلامة من علامات النقد؛ فالأسئلة الحقيقية لا تتأسس إلا على نقد كل ما هو متكون ومعطى في التجربة الإنسانية وفي محيطها، ولعل جزءاً كبيراً من عجز العقل الإسلامي اليوم يرجع إلى تعامله مع الأجوبة الجاهزة، وإلى غياب عملية النقد، ولهذا ظل الفكر الإسلامي رهيناً بتراث الأجداد وعاجزاً عن التعاطي الإيجابي مع الواقع، بل إنه رهين بتراث الحاضر الغربي أيضاً؛ فإذا تأملنا في تاريخنا وجدنا أن الحضارة الإسلامية ما كانت لتنتج كل ذلك الكم الهائل من العلوم والمعارف التي شملت مختلف حقول المعرفة البشرية، إلا باعتماد آلية النقد. هذه الآلية هي التي تؤسس لثقافة التنوع والاختلاف والتعدد، مما يسهم في إثراء العقل الإنساني، ويعزز من حضوره في قضايا الواقع الذي يكاد يكون الغائب الأكبر في فكر الأمة المعاصر.

إن بحثنا عن إجابات -لأسئلتنا الراهنة- في التجارب الماضية، واستعارتنا لمنظومات تفكير جاهزة، يعني أن يظل العقل الإسلامي مكبلاً، غير قادر على الإبداع والاجتهاد في قضايا المعاصرة، ويعني أيضاً أن نفكر بفكر الماضي في قضايا الحاضر، بينما المطلوب هو أن نرسم معالم تجربتنا الخاصة، ونسهم في إرساء كسبنا التاريخي وفق المعطيات والظروف المعاصرة، يقول سبحانه وتعالى: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (23) فالوحي تعبير عن إمكان لا نهائي ولا محدود بحدود الزمان والمكان، وهو مستوعب للتجربة الإنسانية على امتدادها التاريخي، كما أنه منفتح على تعدد القراءات والتأويلات. فينبغي إذن أن نبحث عن الإمكان التاريخي المناسب لواقعنا المعاصر.

إن آلية النقد هي إحدى آليات التجديد الذي يعتبر طريقاً لتحقيق الخلود والاستمرار لقيم الوحي؛ فالتجديد هو حركة الدين في التاريخ، وبفقد ما تتسع دائرة التجديد تتسع حركة الدين. كما أن النقد هو إحدى آليات وصل الفكر الإسلامي بالواقع بعد انقطاعه عنه، حيث أصبح فكراً تجريدياً بعيداً كل البعد عن قضايا الناس وانشغالاتهم المعرفية، الاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والسياسية.

حين نربط السؤال بآلية النقد، فهذا يعني أن نبلور تجربتنا الخاصة ونصنع أوضاعنا في ضوء معطيات الواقع المعاصر، وأن نملك القدرة على نقد التراث من خلال عمليتي الاستيعاب والتجاوز، ولعل فشل مشاريع النهوض والبعث الحضاري ترجع إلى غياب قراءة واعية ونقدية للواقع، مما زاد من تعقد مشاكل الأمة، وزاد من حالة الاغتراب عن الواقع، إذ كيف يمكن تغيير الواقع من خلال معرفة بشرية تنطلق من خارجه، معرفة نسبية تزعم لنفسها القداسة والخلود، مع أنها في حقيقتها تعبير عن قراءات وفهوم وتفسيرات وتأويلات،

(23) سورة: البقرة الآية 134

مرتبطة بالتاريخ وموجهة بحاجاته وإكراهاته الاجتماعية والسياسية، تحولت إلى قوالب جامدة وجاهزة، وقف إزاءها الفكر الإسلامي موقف المتلقي؟ بل إن ذلك الثراء والتنوع تحول اليوم إلى عامل للفرقة والخلاف، ودليل ذلك حالة الصراع والعنف السائدة اليوم في عالمنا العربي والإسلامي.

فعندما نحصر العقل في اجتهادات السابقين، وفي سياقات وتجارب تاريخية محددة، فإننا بذلك نحجر على العقل ونضفي عليها طابع القداسة والخلود، وهكذا نخرجها من حدود التاريخ والاجتماع البشري، ونجعل من تاريخهم تجربة نمطية جاهزة يتوجب علينا استنساخها، علما أن اجتهاداتهم غير قادرة على استيعاب حركة الواقع المعاصر، لأنها لم تتبع منه، وبالتالي عدم قدرتها على مواجهة تحدياته، والإجابة على تساؤلاته وإشكالاته المعقدة.

## ثانياً: في فلسفة السؤال والرؤية الكونية القرآنية

إن طبيعة السؤال في القرآن الكريم تظل محكومة بطبيعة المفاهيم المؤطرة للرؤية المعرفية القرآنية، وهي التوحيد، والخلود، والاستيعاب، والاستخلاف، والتكامل، والهيمنة، والتصديق، والعالمية... فهذه المفاهيم حين نسحبها على فلسفة السؤال في القرآن الكريم، نجدها تضيف إليه أبعاداً جديدة.

فالرؤية الكونية القرآنية، تعني تلك الرؤية التي تحدد علاقة الإنسان بالله والكون والحياة؛ فهي إذن رؤية للعالم قائمة على مجموعة من المبادئ والمفاهيم والقيم، وهذه الرؤية الكونية لا تتحدد إلا من خلال تلك الأسئلة الجوهرية التي تطرح حول معنى الحياة، وحول المصير والغاية؛ فهي أسئلة معرفية وجودية وفلسفية لا يمكن أن يجيب عنها إلا الدين، بوصفها الوحيد المؤهل لطرق هذه الأسئلة، لأنها تنتمي لعالم الغيب.

إن الرؤية الكونية القرآنية، تجسد ذلك الاستمرار الدائم والمستوعب للتجربة الإنسانية؛ فهي توسع من دائرة الفهم والإدراك، ولا تحصر الفكر في مجال تاريخي معين؛ فالمفاهيم التي تنتج في التاريخ لا يمكن كشف تاريخيتها من خلال عرضها على الرؤية القرآنية الأرحب والأوسع، والأكثر انفتاحاً واستيعاباً للمفاهيم، لأن تلك المفاهيم التاريخية تنزع دائماً للبس ثوب القداسة والخلود، رغم ارتباطها بالتاريخ وبالفهم البشري، القائم على التفاعل بين العقل والوحي والواقع.

### - علاقة السؤال بإمكان المعرفة:

إن مسألة إمكان المعرفة كمشكلة فلسفية لم يحفل بها القرآن الكريم، ولم يهتم بها ذلك الاهتمام الفلسفي المجرد، الذي يجعل من الأمور البديهية الواضحة مشكلة تحتاج إلى حل، ذلك لأن بحث

الإنسان فى مسألة إمكان المعرفة، هل يعلم الإنسان شىئاً أو لا يعلم شىئاً، والتشكىك فىها أمر مخالف لطبيعة المنهج القرآنى، الذى هو خطاب الله تعالى لعباده كى يحررهم من الظلمات إلى النور، وكى يجعل من الإنسان مركز الكون فى العمارة والاستخلاف. كما أنه مخالف لفطرة الإنسان نفسه، لأن الله سبحانه قد جعل العلم أو العقل أو القدرة على التمييز والتعلم ميزة الإنسان عن سائر المخلوقات<sup>(24)</sup>، فقال سبحانه: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).<sup>(25)</sup>

إن الحديث عن علاقة السؤال بإمكان المعرفة، هو حديث عن مجال المعرفة ومداخلها، فإذا كان الشكك الأوائل قد وصل بهم أمر الشك المعرفى إلى حد إنكار الوجود نفسه والأشياء، وإمكان إدراك طبيعة ذوات الأشياء، فإن الفكر الإسلامى يقف موقفاً مغايراً لهذا التصور، إذ يعتبر السؤال مدخلاً أساسياً من مداخل المعرفة، ولا تكون هناك إمكانية لطرح السؤال إلا ونحن نفترض إمكانية الجواب.

إذ يقرر الفكر الإسلامى، استناداً إلى القرآن الكرىم، وجوداً مستقلاً للأشياء خارج نطاق الذات المدركة، يقول سبحانه وتعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).<sup>(26)</sup> فهذا الخلق الربانى موجود من حولنا، أحاط به إدراكنا أو لم يحط. أما التقسيم اليونانى للأشياء إلى: فىزىقية (طبيعية). وميتافىزىقية (ما وراثية أو ما وراء الطبيعة)، فلا يبعد كثيراً عن التصور الإسلامى مع خصوصية المعانى والمفردات، حيث تنقسم الأشياء إلى:

- عالم الشهادة: ويشبه مفهوم عالم الطبيعة الخاضع لإدراك الإنسان بالحس والتجربة والعقل.

- عالم الغيب: ويشبه مفهوم العالم الماورائى، وهو ما غاب عن الإنسان ولم يدركه بحسه، وإنما بإخبار من الله ورسوله، ولفظاً الغيب والشهادة - مع تقابل المعنى- وردا تجاوزاً فى كتاب الله فى عشرة مواضع، وجميعها وردت فى بيان اختصاص الله تعالى بالعلم المطلق (غيب وشهادة). والمعرفة الكلية، لا يتاح لبشر من خلقه أن يحيط بها على وجه الشمول واليقين. يقول سبحانه

(24) الكردى. راجع عبد الحميد، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مكتبة المؤيد، المعهد العالمى للفكر الإسلامى. الطبعة الأولى 1996م ص 149

(25) سورة: الإسراء الآية 44

(26) سورة: الجمعة الآية 8



وتعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)،<sup>(27)</sup> وقوله تعالى: (لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ).<sup>(28)</sup>

## ثالثاً: في فلسفة السؤال في القرآن الكريم وتطوير البحث العلمي

إن دور فلسفة السؤال في القرآن الكريم في تطوير البحث العلمي يمكن تحديدها من خلال ثلاثة عناصر، هي:

### - تحديد نقطة الانطلاق:

يعني ذلك ضرورة تحديد الأرضية التي ينطلق منها السؤال، ونضرب لذلك مثلاً تلك الأسئلة الزائفة التي يطرحها الفكر العربي حول الحداثة، وما بعد الحداثة أو نهاية الحداثة، وغيرها من الأسئلة التي تظل تعبيراً عن ترف فكري واستلاب حضاري للثقافة الغربية، لأنها تنطلق من واقع غير واقعي، فهذا الفكر يفترض فيه أن يعبر عن انشغالات الواقع العربي الإسلامي، وأن يلامس قضايا الحقيقة، وأن يهتم بقضاياها وإشكالاته، وأن يعبر عن هم معرفي حقيقي، فلا معنى للحديث عن ما بعد الحداثة في الوقت الذي نعيش فيه في عصر الانحطاط والتدهور.

### - استقلالية السؤال وشرط الحرية:

ينهض طرح السؤال في القرآن الكريم على افتراض أساسي، مفاده أن الحرية شرط موضوعي وأساسي في بنية السؤال المعرفي؛ فلنصل إلى طرح الأسئلة الحقيقية ينبغي توفر شرط الحرية الذي يمثل الأرضية الواقعية لحرية السؤال، فلا يمكن للفكر أن يقارب موضوعاته، وأن يسائل الواقع في ظل جو قد تنعدم فيه شروط الانفتاح والتعدد وقبول الرأي الآخر، فقضية السؤال إذن، قضية يتداخل فيها ما هو اجتماعي مع ما هو معرفي، ولا يمكن أن تتطور الأسئلة في ظل مناخ تحارب فيه الأفكار المخالفة.

### - سؤال الماضي وسؤال الحاضر:

هذه أخطر قضية يعاني منها الفكر العربي والإسلامي في نظري؛ فالسؤال لا بد له من موقع ينطلق منه، حتى ينتج المعرفة، وإلا فإنه سيظل مجرد إعادة إنتاج لصور المعرفة؛ فالارتهان للماضي والانطلاق منه، وجعله حاكماً على الحاضر فيه، قتل للإبداع وتدمير لطاقت الإنسان الخلاقة، وتغييب للواقع المعاصر، إذ كيف

<sup>(27)</sup> سورة: الإسراء الآية 85

<sup>(28)</sup> سورة: البقرة الآية 255

يعقل مثلاً أن نجد الأمة تجر معها حروب الماضي وصراعاته، لتحاول إعادة إنتاجه من جديد، وكأن هذه الأمة ليس لها حاضر ولا مستقبل سوى الماضي، يعيد إنتاج نفسه باستمرار، الشيعة والسنة والصراع حول الأشخاص، مهما سمت بهم أرواحهم وأخلاقهم؛ فهم بشر غير منزهين ولا معصومين.

إن السؤال الذي ينطلق من معطيات الماضي وأحداثه وتفصيله، ويحاول أن يظل مرتهاً له وطرفاً من أطرافه، دون أن يجعل من ذلك مجرد أضواء كاشفة لفهم الحاضر وحل إشكالاته وقضايا المعقدة؛ فهو مجرد صورة مشوهة للماضي ونموذج فاقد للصلاحية والواقعية. إن سؤال الماضي يجب القطع معه، لنبدأ مسيرتنا التاريخية الجديدة وفق معطيات الواقع المعاصر، وإن السؤال لا بد أن يسأل الماضي ويفككه وينقده، لكن لا ينبغي أن ينطلق منه ليعود إليه، بمعنى لا يجب أن يكون الماضي غاية في حد ذاته.

### - تكاملية السؤال المعرفي:

حينما نتأمل طبيعة المعرفة في القرآن الكريم، نجد أن المعارف ثلاثة أنواع، هناك ما هو فطري: وهو العلم الضروري الذي خلقه الله تعالى مركزاً في فطرة الإنسان، ومنه العلم بالبدهيّات العقلية وبالله وبالأسماء، يقول تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).<sup>(29)</sup>

وهناك علم الوحي: وهو العلم الرباني الذي وصل إلى الإنسان عن طريق الوحي: (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).<sup>(30)</sup>

وهناك المعارف الاكتسابية: وهي المعارف التي يكتسبها الإنسان من الوحي أو الكون أو كليهما، بالحس والتجربة والعقل والحدس، ( وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).<sup>(31)</sup>

فالمعرفة في القرآن الكريم تتسم بالتكامل بين حقول المعرفة المتنوعة، وهي تجمع بين الوحي والعقل والواقع، ثم إن السؤال يقتضي ميداناً يكون موضوعاً للتساؤل والتأمل؛ وهذا الميدان بحسب نصوص القرآن الكريم، إما أن يكون في عالم الغيب، وإما أن يكون في عالم الشهادة، وطبيعي أن البحث في عالم الغيب محدود، إذ أعفى الإنسان من الدخول في تفاصيله باعتبار ذلك خارجاً عن نطاق طرائق المعرفة لديه، من حس وعقل

<sup>(29)</sup> سورة: البقرة الآية 31

<sup>(30)</sup> سورة: الشورى الآية 3

<sup>(31)</sup> سورة: النحل الآية 78

على وجه التحديد، وليس أمامه إلا مصدر الوحي وطريقته لمعرفة. أما عالم الشهادة، فهو الميدان الحقيقي للبحث.

### - الشك المنهجي وفلسفة السؤال:

يعرف الشك بوجه عام بأنه نزعة، تدفع صاحبها إلى التردد بين الإثبات والنفي، وتحمله على التوقف عن الحكم، استناداً إلى أن كل قضية تقبل السلب والإيجاب بقوة متعادلة، فيمتنع عن إثبات الحقائق أو نفيها<sup>(32)</sup> ويعرفه الجرجاني: "بأنه التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشئيين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو الظن، فإذا طرحه، فهو غالب الظن، وهو بمنزلة اليقين"<sup>(33)</sup>.

وكان مفهوم الشك، في أصله اليوناني، يبحث أو يستقصي حتى يستطيع أن يكتشف ثم تغير معناه، وأصبح يدل على نظرية خاصة بالإنسان الذي يبحث عن الحقيقة، ولكنه لا يعثر على أية حقيقة<sup>(34)</sup>، والذي يجمع بين الشك هو الهجوم على جميع الفلسفات الاعتقادية، التي زعمت أنها كشفت الحقيقة.

ويمكن التمييز بين نوعين من الشك:

- الشك المذهبي: وهو أن يتخذ الإنسان من الشك مذهباً يلغي به كل معرفة.

- الشك المنهجي: وهو أن يتخذ المرء من الشك منهجاً للوصول إلى المعرفة؛ أي يبدأ به ولا ينتهي إليه؛ والشك هنا وسيلة لا غاية في ذاتها، وهو شك محدود. ويسمى أيضاً بالشك الفلسفي، ويختلف اختلافاً تاماً عن الشك المذهبي، لأنه لا يرفض الحقيقة ولا يذهب إلى حد التمادي في الجحود على إنكار قدرة الإنسان على المعرفة<sup>(35)</sup>؛ فهو لا يعتبر الشك غاية في ذاته، بل يعتبر الشك وسيلة، ليتوصل من خلاله إلى غاية أخرى وهي بلوغ اليقين.

ويرجع هذا الشك في جذوره التاريخية إلى الفيلسوف اليوناني سقراط، كما استخدم أرسطو الشك استخداماً منهجياً تأثراً بسقراط، إذ رأى أن اليقين المنطقي يجب أن يقوم على الشك كمنهج في فحص الأفكار والتأكد من قابليتها للتعميم. وعرف الشك المنهجي في حقل المعرفة الإسلامية عند المعتزلة، حيث كانوا يشترطون الشك كمقدمة ضرورية لصحة النظر المؤدي إلى العلم، إذ لا يصح النظر عندهم إلا مع الشك.

<sup>(32)</sup> المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية القاهرة، 1979، ص 103

<sup>(33)</sup> الجرجاني، علي بن محمد الشريف. التعريفات، مكتبة لبنان ساحة الصلح بيروت طبعة جديدة 1985، باب الشين، ص 134

<sup>(34)</sup> جان فال: طريق الفيلسوف، ترجمة د. أحمد حمدي محمود. مؤسسة سجل العرب 1967، ص 231

<sup>(35)</sup> زقروق، حمدي محمود: تمهيد للفلسفة، دار المعارف القاهرة، الطبعة الخامسة مزيدة ومنقحة، 1994، ص 127

أما أبو حامد الغزالي، فقد سلك طريق الشك بحثاً عن اليقين، وكان ديكارت من أكثر الفلاسفة تأكيداً على ضرورة الشك كمنهج في التفكير، وهو إلى جانب الغزالي يعتبران واضعي أسس الشك المنهجي، وكان هذا الشك هو التمهيد الضروري للمنهج. يقول ديكارت: "نظراً لرغبتني في أن أفرغ للبحث عن الحقيقة، رأيت أنه يجب علي أن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك، على أنه باطل على الإطلاق، وذلك لأرى إن كان لا يبقى في اعتقادي بعد ذلك شيء لا يحتمل الشك".<sup>(36)</sup>

لقد كان هذا الشك طريقاً إلى اليقين، وهو شك في المعلومات والآراء المسبقة، وهدفه إفراغ العقل توطئة، لإعمارها بحقائق يقينية تتأسس على بديهيات أولية، وهذا هو الشك الذي عاشه الغزالي. وحالة إفراغ الذهن أيضاً مر بها ديكارت، حتى استقر على نقطة من اليقين في حقيقة تفكيره التي أسس عليها حقيقة وجوده (أنا أفكر إذن أنا موجود).

وإذا كان الشك هو الطريق إلى اليقين، " فلا سبيل إلى تطهير العقل من الأفكار الغامضة إلا بطرح كل ما فيه من أفكار أولاً، ثم التمييز في هذه الأفكار بين الصحيح منها والفاقد، والواضح منها والغامض. وبعد ذلك يمكن إعادة ما يكون واضحاً وتميزاً من هذه الأفكار إلى العقل، وطرح الغامض منها خارج العقل".<sup>(37)</sup> إن القيمة العلمية للشك المنهجي تكمن في أنه بعد تلاشي الشك، بوصفه نظرية في المعرفة، توطدت أركان الشك بوصفه منهجاً للبحث والتدقيق في المعرفة.

## خاتمة:

لقد تبين لنا من خلال عرض تلك المعالم والمؤشرات، كيف أن فلسفة السؤال في القرآن الكريم تعبر عن نسق نظري متكامل، وتنبني على رؤية قرآنية كونية، يتكامل فيها ما هو اجتماعي مع ما هو معرفي، وما هو في عالم الغيب مع ما هو في عالم الشهادة. فليس السؤال إلا جزءاً من نظام معرفي قرآني، يؤمن بحرية الإنسان، ويجعل ميزة السؤال علامة على العقل والنقد والمسؤولية والحرية، كما يؤسس لشرعية الاختلاف وضرورة الحوار.

إن فلسفة السؤال في القرآن الكريم لا يمكن أن نحيط بمعالمها كنظرية أو منظومة متكاملة العناصر في هذه الدراسة التمهيدية، بل إنها تحتاج إلى دراسة وافية ومطولة، تستقرئ آيات القرآن بتدبر وتمعن، وتستنتق

<sup>(36)</sup> ديكارت، رينيه: مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضير، مراجعة وتقديم د. محمد مصطفى حلمي الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة 1985 ص 213/212

<sup>(37)</sup> السكري، عادل: نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1999م، ص 44

تجارب التاريخ الماضية بغية الوصول إلى نظرية متكاملة حول طبيعة السؤال في القرآن. لذلك، فإن ما أشرنا إليه هنا لا يعدو أن يكون بعضاً من المعالم أو المؤشرات، التي يمكن أن تسلط الضوء على هذا الموضوع الذي يتسم بأهمية قصوى، خصوصاً في ظل حالة التردّي والتقهقر المعرفي الذي تتخبط فيها الأمة الإسلامية اليوم.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com